رثاء الحيوان في الشعر العباسي

م.د. أثير عبد الزهرة عبد علي

مديرية تربية محافظة ذي قار

Abohaidar81@gmail.com

الملخص:

عدّدت أنواع الرثاء في الشعر العربي؛ فمنها ما اختص بالحكام والملوك ، ومنها ما اختص بالأقارب كالزوجة والابناء والفقهاء، ولم يبقَ الرثاء متمحوراً حول الانسان فقط، بل ظهر نوع آخر من الرثاء عند العرب هو رثاء الحيوان وأفردت له القصائد المستقلة ، و مردّه الى مظاهر الحياة الجديدة التي ظهرت في هذا العصر من شيوع الثراء والترف المادي الذي غلب على حياة الناس، فقد أكثروا من تربية الحيوان في بيوتهم ، فأوجد هذا نوعاً من التعاطف بينهم وبينه، ودعاهم الى التعبير عن مواقفهم منه، وكان رثاؤه نوعاً من هذا التعاطف ، وتعبيراً عن الحزن الحقيقي في بعض الاحيان، فتفننوا في هذا الغرض تفنناً لم يعرفهُ الشعر من قبل، واتجهوا به وجهات جديدة ، فخرجوا به عن دائرة الأشخاص إلى آفاق أخرى معنوية أو حسية.

الكلمات المفتاحية : (الرثاء ، رثاء الحيوان).

Animal lamentation in Abbasid poetry

Athir Abdul Zahra Abdul Ali

Dhi Qar Education Directorate

Abohaidar81@gmail.com

Abstract:

The types of elegy in Arabic poetry varied; some of them were specific to rulers and kings, and some were specific to relatives such as wives, children and jurists. Elegy did not remain centered around humans only, but another type of elegy appeared among the Arabs, which is the elegy of animals, and independent poems were devoted to it. It is due to the new aspects of life that appeared in this era of the spread of wealth and material luxury that prevailed in people's lives. They raised animals in their homes a lot, which created a kind of sympathy between them and them, and called on them to express their positions towards

them. Elegy was a kind of this sympathy, and an expression of true sadness sometimes. They excelled in this purpose in a way that poetry had not known before, and they directed it in new directions, taking it out of the circle of people to other moral or sensory horizons. (Elegy , Elegy of Animals)

الرثاء :

تدور مادة الرثاء في اللغة حول الحزن والبكاء، فيقال رثى فلان فلاناً يرثيه رثياً ومرثية اذا بكاه بعد موته، و رثيت الميت رثياً ورثاءً ومرثاة ومرثيّةٌ| ورثيته: مدحته بعد الموت وبكيته، ورثوت الميت أيضاً اذا بكيته وعددت محاسنه، وامرأة رثائة وثاية: كثيرة الرثاء لبعلها أو لغيره ممن يكرم عندها وتنوح نياحة، وفي الحديث: أنّه نهى عن الترثى وهو أن يندب الميت فيُقال: وافلاناه، ويقال: ما يرثى فلان لي أي ما يتوجع ولا يبالي.

فنرى أن مادة "رثاء" تدور حول معنى الحزن والبكاء والندب والتوجع، وورد الفعل "رثا " مهموزاً فيقال "رثأ" وغير مهموز فيقال: " رثا" ومعناها واح ، فرثأت الجل رثاً : مدحته بعد موته، فالهمز لغة في المادة والمعنى واحد لا يختلف ، قال الجوهري: وأصله غير مهموز[١] ، والرثاء في الاصطلاح: يعني التفجع على الميت والتلهف عليه وتعداد مناقبه، واستعظام المصيبة فيه[٢] ، وان كان غرض الرثاء يثير موقف الأنسان اتجاه الموت، وما يتركه في النفس من ألم الفراق ، ولوعة الحزن بإستذكاره الخصال الحميدة، والأفعلا السامية للمرثي، الا إن قدامة بن جعفر عدَّ المرثيّة كالمدحة لا فاصل بينهما سوى أن يذكر في المرثيّة ما يدل على أنّها لهالك مق " كان، تولى، قضى نحبه، وما أشبه ذلك" ، وهذا لا يزيد في المعنى ولا ينقص، لأنَّ تأبين الميت ، إنَّما هو بمثل ما كان يُمدح في حياته[٣] ، ونرى صاحب كتاب "العمدة" يوافقه الرأي، اذ قال " ليس بين الرثاء والمدح فرق إلا ان يخلط بالرثاء شيء يدل على أنّه المقصود به ميت"[٤] ، وقد ذكر أن الرثاء والفخر يرجع الى المديح[٥] ، ويشاطرهما الرأي "محمد مصطفى هداره " ذاكراً أن الرثاء" تمجيداً لخصال الميت، في المقابل المديح تمجيد لخصال

الحي" [٦] ، ونرى أن قدامة بن جعفر، ومن يشاطره الرأي في نظرته اتجهوا الى الصفات والسجايا التي مدح بها الشخص في كلا الموقفين، بيد أنَّهم تجاهلوا العواطف والمشاعر والمواقف المتضادة من هذين الموقفين، فالمديح يغلب عليه عاطفة الفرح والسرور والغبطة، في حين الرثاء تغلب عليه عاطفة الحزن والألم، وشتان بين العاطفتين، ولا يمكننا أن نعطي حكماً قاطعاً بصدق الشاعر تجاه الموقفين، الا ان قصائد الرثاء غالباً ما تكون صادقة والشاعر قد تجرّع ألم الفراق والحزن، فما صدر حزنه الا عن تجربة واقعية مرّ بها. ويُقسم الرثاء على :

١- الندب : وهو النواح والبكاء على الميت بالعبارات المشجية، والألفاظ التي تصدع القلوب القاسية، وتذيب العيون الجامدة[٧] .

٢- التأبين: هو تعداد مآثر الميت، ومناقبه، والتغني بكريم خلاله، ونبيل سجاياه[٨]

٣- العزاء: هو عرض الأفكار وارسال الحكم والدعوة الى التصبّر والتأسي[٩]

وظهر انواع للرثاء، وهي: رثاء الخلفاء، رثاء القادة والولاة، رثاء الاعلام من ذكران واناث، رثاء ذوي القربى، رثاء الذات، رثاء المدن والبلدان، رثاء الحيوان. وسوف نقتصر في بحثنا هذا على رثاء الحيوان.

رثاء الحيوان

ارتبطت حياة العرب بالحيوان ارتباطاً وثيقاً، لأن شظف العيش، وقسوة الحياة، ودأبهم على التنقل ، واستمرار الانتجاع، وكثرة الحروب، ووفرة الصيد ، كل ذلك جعل للحيوان مكانة كبرى في حياتهم، من هنا نجدهم يشبهون الإنسان بالأسد والقرد والحرباء وما الى ذلك، كلٌّ في صفته، ففي الشعر الجاهلي والأموي جاء رثاء الحيوان محدوداً، وقلما يظفر بقصائد مستقلة ، أو مقطوعات متعددة، يبكي فيها

الشاعر حيوانه، أو يندبه ويعدد مآثره، ويصف حاله بعد فقده، لكن هذا اللون من الرثاء خلا منه عصر صدر الاسلام –تقريباً– وربَّما كان ذلك راجعاً إلى انشغال الشعراء بالدين الجديد الذي عمرت به القلوب ، والى الفتوحات الاسلامية التي شغلتهم ، وحرصهم على متابعة الأحداث المتلاحقة في المجتمع الاسلامي، فلم يولوا هذا اللون من الشعر اهتماماً، منصرفين إلى رثاء شهدائهم، وهذا لا يمنع أن يتسع خيال بعضهم فنعثر لهم على نماذج تمثل بكاء الحيوان لصاحبه، وبشكل عام فإنَّ رثاء الحيوان فيما قبل العصر العباسي وإن كان قليلاً إلا أنّه يتميز بالجد، وصدق العاطفة الإنسانية، كما كان مشحوناً باللمسات الواقعية، بعيداً عن التكلف، فقد كان الحيوان –بالنسبة للعربي آنذاك وخاصة الجاهلي– شيئاً ضرورياً في حياته ، لا يستطيع الاستغناء عنه، فاذا فقده، كانت خسارته فادحة، والرزء فيه عظيماً ، فيندفع يرثيه بصدق ووفاء[١٠] ، من ذلك ما قاله السليك بن السلكة في رثاء فرسه[١١] ،

كَأَنَّ قوائمَ النَحامِ لَمّـا تَحَمَّل صُحبتي أُصُلاً مَحارُ

على قرماءِ عاليةٌ شواه كأَنَّ بياضَ غُرَّتِه خِمـــــارُ

وما يُدريكَ ما فَقري إليه إذا ما القومُ وَلَّوا أَو أَغـاروا

فالشاعر يرثي فرسه الذي فقده وقت الشدّة ، حين يفرُّ القوم من ساحة الوغى، إنَّه يتحسر على فراقه فقد كان رفيقه الذي يلازمه أينما توجّه وفي أي مكان حلّ.

رثاء الحيوان في العصر العباسي

شاع في هذا العصر رثاء الحيوان وافردت له القصائد المستقلة، ويرجع ذلك الى شيوع الثراء والترف المادي الذي غلب على حياة الناس ، اذ اكثروا من تربية الحيوان في بيوتهم فأوجد هذا نوعاً من التعاطف بينهم وبينه، مما دعاهم إلى التعبير عن مواقفهم منه، وكان رثاؤه نوعاً من هذا التعاطف،

وتعبيراً عن الحزن الحقيقي في بعض الأحيان، فهو ضرب جديد من الرثاء يكشف عن معنى حضاري، حيث تتولد العاطفة التي تربط بين الإنسان وهذا النوع من الحيوان –وكذلك الطير– والتي تغدو قوية في نفس الانسان حتى ان فقده للحيوان الذي لديه يبعث في نفسه الأسى والحزن[١٢] ، ومن مراثي الحيوانات في العصر العباسي رثاء ابي نواس لكلب صيد لسعته حيّة فمات ، قال يرثيه[١٣] :

يا بُؤسَ كَلبي سَيِّدِ الكِلابِ قَدْ كَانَ أَعْنَانِي عَنِ العُقابِ

وَكَانَ قَدْ أَجْزَى عَنِ القَصّـــابِ وعَنْ شِراءِ الجَلَبِ الجَلّابِ

يا عَينُ جُودِي لِي عَلى خَلّابِ مَنْ لِلظِّبَاءِ العُفْرِ وَ الذِّئَابِ

وَ كُلُّ صَقْرٍ طَالِـــــعٍ وَثَّابِ يَخْتَطِفُ القُطّانَ في الرَّوَابِي

كَالبَرْقِ بَينَ النَّجْمِ وَالسَّـــحَابِ كَمْ مِنْ غَزالٍ لاَحِقِ الأَقْرَابِ

ذِي جِينَةٍ صَـــعْبٍ وَذِي ذَهَابِ أَشْبَعَنـــــي مِنْهُ مِنَ الكَبابِ

خَرَجْتُ وَ الدُّنْيَا إِلَى تَبَـــــابِ بِهِ وَكَانَ عِدَّتي وَنَابِـــــي

أَصفَرُ قَدْ خُرّجَ بِالمُـــــــلاَّبِ كَأَنَّما يُدْهَنُ بِالزِّرْيَـــــابِ

فَبَينَما نَحنُ بِهِ في الغَـــــابِ إِذْ بَرَزَت كَالِحَـــةُ الأَنْيَابِ

رَقْشَاءُ جَرْدَاءُ مِنَ الثِّيـــــابِ كَأَنَّما تُبْصِرُ مِنْ نِقَـــابِ

فَعَلِقَتْ عُرْقُوبَـــــــــهُ بِنابِ لَمْ تَرْعَ لي حَقّاً وَلَم تُحـابِ

فَخَرَّ وَانْصَاعَتْ بِلا ارْتِيَـــابِ كَأَنَّما تَنْفُخُ مِنْ جِـــــرابِ

لا أُبْتُ إِن أُبْتِ بِلا عِقَـــــابِ حتّــى تذُوقِي أَوْجَعَ العَذَابِ

فالملاحظ في هذه المقطوعة أن أبا نواس رثى كلبه بالمعاني التي يُرثى بها الانسان عادة، فعبارة (يا عين جودي) لا تكاد تخرج عن نطاق رثاء الخنساء لأخيها معاوية في قولها[١٤] :

يا عَينِ جُودي بِالدُّموعِ المُسْتَهِلّات السَوَاجِـــمِ

وَابكي مُعاويةَ الفَتَـــى وَابْنَ الخَضَارِمَةِ القُمَاقِمِ

فجاء رثاء أبي نواس بأسلوب قصصي جميل ، صوّر لنا بواسطته قصّة كلبه "خلّاب" بلدغة حيّة رقشاء، فهو يُقسم أنّه لن يستريح حتّى ينتقم منها شرّ انتقام.

فهذا النوع من الأبيات عدّه النقاد باباً من ابواب التجديد في شعر الرثاء، حيث ظهرت آفاق معنوية جديدة، فرثى الشعراء الكلب والهرّة، وهي من سلالة الحيوانات الأليفة، فكشف هذا النوع من الرثاء عن معنى انساني حضاري ممثلاً العاطفة التي تربط بين الانسان وحيوانه مما يجعله يشعر بالحزن والأسى عند فقده[١٥] .

ولإبن العلاف النهراوني قصيدة مشهورة في رثاء " هرّ"، تُعدّ من روائع الشعر العربي، وقد ذكرت بعض المصادر أنّه كان يملك هرّاً يألف به كان يدخل برج الحمام التي لجيرانه يأكل افراخها، وكَثُرَ ذلك منه فأمسكوه وذبحوه، من أبيات هذه القصيدة[١٦] :

يا هرُّ فارقتنا ولم تـــــــــعدِ وكُنـتَ عِندي بِمنزل الولد

فكيفَ ننفكُّ عن هواكَ وقـــدْ كُنتَ لنـــــــــا عُدَّةَ العُدَدِ

تطردُ عنَا الأذى وتحرُسُـــــنا بالغيبِ من حَيَّةٍ ومن جُرَدِ

وتُخرجُ الفأرَ مِنْ مكامِـــــنها ما بينَ مَفتُوحِها إلى السُّدَدِ

يلقاكَ في البيِ منهمُ مـــــددٌ وأنتَ تلقاهمُ بـــــــلا مَددِ

لا تَرْهَبِ الصَّيْف عِنْد هاجِرَةٍ ولا تهَابُ الشِتَاءَ في الجمَدِ

حتى اعتقدتَ الأذى لجـيرتنَا ولـــــــم تكنْ للأَذى بمُعْتقِدِ

وحُمْتَ حَوْلَ الرَّدى بظُلْـمِهمُ ومَنْ يَحُمْ حَوْلَ حَوضِــه يَرِدِ

ويستمر ابن العلاف يصور لنا طريقة قتله تصويراً فنيّاً جميلاً، فهو يجود بنفسه بعد أَن لفُّوا حول عنقه حبلاً لخنقه، وقد توسّل الخلاص منهم فلم تنفعه أيّةَ حيلة[١٧] :

فلمْ تزل للحمام مُرتصداً حتَّى سُقِيتَ الحِمام بالرَّصدِ

لم يرْحمُوا صُوتَكَ الضّعيفَ كما لم ترثِ منها لِصوتِها الغَرِدِ

أذاقكَ الموتَ ربُّهُنَّ كمـــــا أذقتَ أفراخَهُ يـــــداً بيدِ

كأن حبلاً حوى بجـــــودتِهِ جِيدَكَ للخَنْقِ كان من مَسَدِ

كأنَّ عيني تراكَ مُضـــــطرباً فيه وفي فيكَ رَغـوَةُ الزَّبَدِ

وقد طابتَ الخلاصَ مِنْه فَلَمْ تقدِرْ علــى حيلةٍ ولم تجدِ

فَجُدتَ بالنفسِ والبخيلُ بــها أنت ومَنْ لم يَجُدْ بها يَجُدِ

فما سَمِعْنا بمِثل موتــك إذْ مُتَّ ولا مِثْل عَيشِكَ النَّكِدِ

والقصيدة طويلة يختمها الشاعر بلوم هرّه الذي جنى على نفسه نتيجة سوء صنيعه، فروعة الاداء الشعري في رثاء الهرّ ، ورسم صور رائعة لطريقة موته، تدل على موهبة الشاعر الفذّة، وتمكنه من أدواته الشعرية، فضلاً عن تصوير حالة الفقر الشديد التي كان يعيش فيها ولم يستطع تحملها حتى الهرّ، هذا تفسير قصيدة ابن علاف، أما باطنها فقد ذهب بعض مؤرخي الأدب إلى أنّ المقصود في هذه القصيدة لم يكن الهرّ بذاته، بل إنّ الشّاعر أراد الخليفة المقتول" عبد الله بن المعتز (٢٩٦هـ – ٢٤٧هـ)[١٨] ، فكنّى بالهرّ خوفاً من الخليفة المقتدر بالله، فيقول علي حسين البواب" إنّ الرأي الذي اميل إليه أنّ القصيدة ليس المراد بها الهرّ حقيقة، وإنّما كنّى به عن شخص عزيز عليه، ولم يكن قادراً أن يرثيه، أو يُعبّر عن المه لفراقه، وقد كان قاتله خليفة او وزير[١٩] .

وممن اشتهر برثاء الحيوان الشاعر أبو محمد القاسم بن يوسف بن صبيح، الذي يقول عن الصولي" وإنّما بدأت به لأنَّه أسن من ابى جعفر بن يوسف واكثر منه شعراً، وأفصح من شعره وأشعر في فنه الذي أعجبه من مراثي البهائم من جميع المحدثين، حتى إنَّه لرأس فيه متقدم جميع مَن نحاه، وما ينبغي أن يسقط شيء من شعره"[٢٠] ، قال يرثي عنزاً له سوداء[٢١] :

عين بكـــــــى لعنزنا السوداء كالعروس الأدماء يومَ الجلاءِ

ذات لون كالعنبر الورد قد عـ ـلَّ بما فاق لون الطـــــــلاءِ

ذات روقين أملسين رقيقيـــــ ين وضرَّ عينٍ كالدلاء الملاء

ذات جيد ومقلتين كوحـــــــ شية قفر مـــن جاريات الظباء

مَن يتأمل هذه القصيدة يجد أنَّها أطول قصيدة قيلت في رثاء الحيوان ، كما أنَّ افتتاحيتها قريبة من افتتاح قصائد الرثاء الإنساني في الشعر القديم، فمن المعهود في قصائد الرثاء أن يطلب الشعراء من

عيونهم أن تجود بالدمع، كالخنساء في مراثيها ، وكعب بن مالك يقول في تأبين رسول الله (ص) [٢٢] :

أعينُ فابكى بدمع ذرى لخير البرية والمصطفى

فإنَّ أول شيء يمكن أن يلاحظ على استخدام الشاعر لهذه الصيغة هو الارتفاع بالحيوان إلى المستوى الإنساني، وهذا ما يعزز مكانة الحيوان في نفس الإنسان، وقد ربط الشاعر عنصر الحزن بالحديث عن الصفات التي كانت تتحلى بها هذه العنز[٢٣] ، ويصفها في جمالها وبهجتها بالعروس المجلوة، ثم يأخذ في وصف أجزائها، فيصف قرنيها وضرعها وصدرها ومقلتيها، والى غير ذلك من بقية أعضائها، ويسبغ عليها من صفات الإنسان الشيء الكثير حيث يقول[٢٤] :

فإذا شئت قلت ربـــة بيت ذات طفلين من خيار النساء

أين لا أين مثلها مصطفاة من صفايــا الملوك والوزراء؟

أين لا أين مثلـــها مقتناة عنـــد حالين : شدة ورخاء؟

أين لا أين مثلـــها لجميع أغنياء في الـــناس أو فقراء

والقصيدة طويلة يستمر فيها بتشبيه العنز بامرأة ذات طفلين من فضليات النساء، بل تشبه المرأة التي يختارها الصفوة من الناس، فهي تقتنى في الشدَّة والرخاء، ولا غنى عنها لجميع الناس أغنياء أو فقراء، ولا شك أن تكرار الشاعر لهذا التساؤل، وذكره لمنافعها يكشف عن أهميتها بحيث لا يستغني عنها احد ، فتعظم بذلك المصيبة فيها. ورغم كل حياة الرخاء التي عاشتها هذه العنز الا إنَّ الموت عدا عليها، اذ لم يردّه عنها تلك العناية الفائقة ، ما قلدته من العهون والودائع، فنرى في هذا مدى التقارب والالتقاء بين رثاء الحيوان ورثاء الانسان، اذ يجمع بينهما شمول الموت لكل منهما، وأن الفناء مصير كل حي

، والموت غالب لا مرد له. ثم يتحول الشاعر بعد ذلك لتعداد مناقب هذه العنز التي كانوا يشربون لبنها في كل وقت ، ويصنعون منه الجبن والزبد الطري، كما كانوا يذبحون ولدها فيأكلونه، فيقول[٢٥] :

كم صبوح وكـــم غبوق وقيل قد سقتنا السوداء ملء الاناء

كم شربنا محضاً لها وضياحاً وحقينا مخمراً فـــــي السقاء

ربَّ جبن منها وزبد طـــري قد جمعنا طريـــــــه لسلاء

فأكلناه بالشفاء من النحـــــــ ـــــل وبالنرسيان بعد الغداء

رُبَّ جديٍّ قد أطعمتنا السويداء قديراً وأعقبت لشـــــــــواء

ففي ذكر هذه المنافع للعنز ، يعكس الجانب المادي من رثاء الحيوان، فقد كانت منافعها متعددة ومتنوعة، واخيراً يختم الشاعر قصيدته بأبيات مفعمة بالحزن والأسى على العنز، قائلاً[٢٦] :

كنت غيثاً حياً وكنتِ ربيـــعاً لك طيب النثا وحسن الثناء

لو فدى الحي ميتاً لفديـــــنا ك رخيصاً إن كان أو بغلاء

حبذا أنت يا سويداء لو تمـ ـت لنا فيك مطمعات الرجاء

فيشببها بمثابة الغيث والربيع، وهذا يوحي بالتعاطف بين الانسان والحيوان، ويتمنّى لو يستطيع الفداء لفداها بكل شيء، ولكنَّها الأقدار لا ينفع فيها سوى التسليم، وتأتي بعدها أبيات الحكمة التي ترد- غالباً- في نهاية القصيدة لترتبط بالرثاء، وتسعى إلى تبصير الناس بمصيرهم، بقوله[٢٧] :

أيُّ حيٍّ يبقى فتبقى لنا الـــ سوداء هيهات مالنا من بقاء

كيف يرجو البقاء سكّان دار خـــــــلق الله أهلها للفناء

ولهم بعدها معاد إلـــــــى دارِ خلودٍ إقامـــــــةٍ وجزاء

فتجسد هذه الابيات صورة العبرة والعظة من الحياة والمصير، كما تمثل حتمية الموت وشموله في البيت الأول والثاني، وهذا يدعو إلى السلو وتخفيف الحزن، والاعتبار بما قضى الله.

مما تقدّم من قصيدة القاسم بن يوسف نلاحظ أن الظاهر هو رثاء حيوان مات وهو "عنز" ، لكن طريقة نظم القصيدة وترتيب فصولها من الابتداء بالبكاء عليها، ثم تعداد مناقبها، ثم رسم صورة الفاجعة بفقدها ، وختمها بأبيات حكمة وموعظة ، خير دليل على أنَّ القصيدة تحمل رسالة مبطنة للسلطة الحاكمة آنذاك لكن لشدة تسلطهم وبطشهم بكل مَن يعترض عليهم ، جعل الشاعر يرسم صورة الموت الحتميّة لكل مخلوق على الأرض، مع ذكر أنّ لا شيء ينفع لدفعه لا تمائم ولا عهون كون هذا الاعتقاد سادَ في ذلك الوقت.

ولمحمد بن عبد الملك الزيات فرس أشهب ضنيناً به، ولم يرَ مثله فراهة وحسناً، وصفه محمد بن خالد الى المعتصم ، فطلبه من محمد بن عبد الملك الزيات، فلم يستطع رده، فلما بان عنه رثاه بقصيدة يصف فيها جزعه وحزنه عليه، بقوله[٢٨] :

قالوا جزعت فقلت إنَّ مصيبته جلت رزيتها وضاق المذهـب

كيف العزاءِ وقد مضى لسبيله عنا فودّعنا الأحم الأشهـــب

دبَّ الرشاة فباعدوه وربَّمـــا بَعُدَ الفتى وهو الحبيبُ الأقرب

لله يوم غدوت فيه ظـــــاعناً وسلبت قربك أي علق أسلــب

نفسي مقسمة أقـــــام فريقها ومضى لطيته فريق يجنـــــب

فالشاعر افتتح قصيدته بالحديث عن الجزع، وعِظَم مضيبته بفقد فرسه، والاستفهام في البيت الثاني صوَّر حالة عجزه عن التصبّر والعزاء، ثم يوضح لنا دور الوشاة وراء التفريق بينه وبين فرسه، حين أوعزوا للمعتصم عنه وزينزا له الاستلاء عليه ، ففقد بذلك أعزّ شيء لديه ، ثم على عادتهم في الرثاء ينتقل الى تعداد مناقب فرسه ووصفه، فيقول[٢٩] :

الآن إذ كَمُلت أداتك كـــــلها ودعا العيون إليك حسن معـجب

وغدوتَ طنَّان اللجام كأنَّمـــــا في كل عضوٍ منك صنج يضرب

وكأنَّ سرجك إذ علاك غمامة وكأنّما تحت الغمامة كـــــوكب

أنساك؟ لازالت إذن منسيــة نفسي ولا برحت بمثلك تنكـــــب

فالصورة التي رسمها الشاعر في الأبيات السابقة لفرسه ، وكيف نضج ،وكملت اداته ، واصبح ممشوق القوام كحال الخيول العربية المعروفة بجمالها ورشاقتها، يلفت إليه النظر، ويروق النظّار لما كان يلقاه من عناية فائقة، توضح مقدار الأهتمام والرعاية التي منحها فرسه ليصل به إلى هذا المستوى، وحجم مكانة هذا الفراس في نفسه ، وعمق احساسه بالفجيعة، الأمر الذي يجعله لا يستطيع أن ينساه ، طالما روحه في جسده، ثم يشرع بحديثه عن الحالة التي وصل لها بعد

فراقه[٣٠] :

أضمرت منك اليأس حين رأيتني وقوى حبالي من حبالك تقضب

منع الرقاد جوى تضمّنه الحشى مـــــــــــما أُكابده وهمٌّ مُنصَب

فيتحدث عن حالة اليأس التي وصل لها، وفقد المل بعودته ، فيظل مسهد الجفن، بسبب ما يكابده من الهموم والحزان ، وما انطوى عليه صدره من الجوى، يتضح ذلك في الكلمات التي استعملها الشاعر ، بقوله: (جزعت، مصيبة جلت، ضاق المذهب، أضمرت اليأس، قوى حبالي تقضب، هم منصب) ، التي بيَّنت قوة العاطفة ، وصدقها ، بين الشاعر وفرسه ، بل بين العربي بشكل عام وبين فرسه الذي كان يفضله على أبنائه، ويفديه بالنفس والولد، وهذا ما جعلهم يسبغون عليه صفة الانسان من دون سائر الحيوانات، فتارة يصفوه بالفرس الكريم، وفرس جواد[٣١] ، فهنا استعمل الشاعر الرثاء لبيان الوجه الآخر للخليفة الذي لايستطيع احد أن يذكره صراحة وهو أخذ ما يعجبهم دون الاهتمام بوقع ذلك على صاحبه .

وللبرذون [٣٢] نصيب كبير من رثاء الشعراء في العصر العباسي، وأشهرها برذون أبي عيسى المنجّم[٣٣] ، الذي نظّمت فيه القصائد الطوال بعد نفوقه، عُرفت بـ (البرذونيات)، والسبب وراء هذه الشهرة الواسعة ؛ هو أن الصاحب بن عباد أهدى لعيسى برذوناً، وطالت صحبته له، وكان عزيزاً على نفسه، وعندما مات حزن عليه حزناً شديداً، فأوعز الصاحب إلى ندماءه أن يُعزُّو أبا عيسى ويرثوا برذونه، فقال كل منهم قصيدة فريدة، وهي قصائد غاية في الابداع الفني ، إلا إنّها تخلو من المشاعر الحقيقية ، وفيها شيء من الهزل، اذ نظّمها أصحابها مجاملة للصاحب بن عباد، ونزولاً عند طلبه، من هذه القصائد قصيدة لأبي القاسم الزعفراني[٣٤] قال فيها:

كُن مدى الدهر في حِمَى النَّـــعمَاءِ مستهيناً بحـــــــــادثِ الأزراءِ

ينثني الخَطْبُ حين يلقاك عن طودٍ شديدِ الثَّباتِ للنَّكبـــــــــــاءِ

بكَ يا أحمدُ بن موسى التسلّـــــي والتَّعزي عـــن سائر الأشياء

ومُعزّيك لا يزيدُك خبـــــــــراً بالـــــــذي قد عرفتهُ بالعزاء

قد سخا طَرفُك المفـــــــــ ارقِ بالنفَّس وطرفي من بعدِه بالماءِ

وفي البرذون نفسه قصيدة رثائية للقاضي الجرجاني[٣٥] ، قال فيها:

جلَّ واللهِ مـــــــــا دهالكَ وعزَّا فعزاءً إنَّ الكـــريمَ مُعزَّى

والحَصيفُ الكريمُ مَنْ إنْ أصابت نكبْةٌ بعــدَ ما يَعزُّ يُعزَّى

هي ما قَد عَلِمْتَ أحـــداثُ دَهْرٍ لم تَدَعْ عُدَّةً تُصانُ وكنزا

قصدتْ دولةَ الخلافةِ جـــــهراً فأبادتْ عِـمادها والمُعزَّا

وقديماً أفنَتْ جَدِيساً وطمْســـاً حَفَزَتْهُم إلى المقابرِ حفزَا

إنَّ رثاء البرذون في أبيات أبي القاسم، استعمل فيها الشاعر الاسلوب الانشائي الذي يرمي من خلاله التأثير في المتلقي، وعمق هذا التأثير يتوقف على مدى ابداع الشاعر في انتقاء الاسلوب الملائم للتعبير عن مكنونات نفسه، وهذا واضح في استعمال ابي القاسم لأسلوب الأمر، والنداء ، والنهي، للتخفيف المصيبة على أبي عيسى وحثه على تقبل رزيته ببرذونيه لأن الموت هو حقيقة الوجود (كن مدى الدهر، بك يا احمد بن موسى التسلي، ومعزّيك لا يزيدك خبراً)، فالقاضي الجرجاني ، طغى على أبياته الأسلوب الخبري الذي يُعد ملمحاً من أهم ملامح اللغة الشعرية في شعر البرذونيات، ولا أعني بالأسلوب الخبري هنا تلك الجمل الخبرية المباشرة التي تثبت شيئاً أو تنفيه عنه، وإنَّما أعني بها تلك الأساليب الخبرية الفنية التي يُعبر بها الشعراء عن حوائج أنفسهم بطريقة فنيّة؛ اعتماداً على التجوّز

والمبالغة، وسائر ألوان البيان وضروب الايقاع، حتى يمتزج العقل بالعاطفة والخيال[٣٦] ، فسرد حقائق مؤكدة مستقرة في أذهان الناس تتعلق جميعها بفكرة حتميّة الموت؛ فبدأ معزيّاً أبا عيسى مقراً بجلال المصيبة التي حلّت به ، ثم أخذ يسليه عن مصيبته سارداً أخباراً تؤكد إتيان الموت على كل شيء مهما عزَّ، كإبادة دولة الخلافة، وإهلاك جديس وطمس ، ويبدو أعتماد الشاعر على الأفعال الماضية التي سيطرت على تراكيبه، نحو (جلَّ، دهاك، عزّا، أصابت، علمتَ، لم تدْع، قصدتْ، أبادت، أفنت، حفزتهم) لتأكيد فكرته وتقريرها.

وكان لرثاء الطيور نصيبٌ في الشعر العباسي، فمن رثائها قصيدة أبي محمد القاسم بن يوسف يرثي " القُمَري" فيقول[٣٧] :

هل لإمرئ من أمان من ريب هذا الزمان

أم هل ترى ناجياً مـــ ـن طوارق الحدثان

ما اثنان يجتمـــــعان إلا سيفترقـــــان

قرين كل قريـــــــن يبين بعد اقتـــران

والمازمان ونسر السـ ـــــماء والفرقدان

يبلى الجديد الجديـ ـــدان ثم ما يبليان

فالشاعر يصدّر قصيدته بهذه الأبيات الوعظية الحكمية التي تعني أن لا أمان لإمرئ من مصائب الأيام وأنّه ليس هناك من ينجي من المصائب، ولابد للجمع أن يفترق ويفرق القرين وقرينه وكل جديد

بالٍ لا محالة، ثم يأخذ الشاعر في رثاء " القُمَري" ويندبه ندباً حارّاً ويعلن عن ألمه وحزنه لفقده وحسرته وأساه لموته، فيقول(٣٨) :

كان المــطوق خدناً من أكرم الأخــدان

وصـــــاحباً وخليلاً من خالص الخلان

ستين سبعــاً وعشراً محفورة بثمـــــان

فغاله حادث مـــــ ـن حوادث الأزمان

أمس المطوق رمساً دريجة الأكـــــفان

مستوطنــاً دار قفرٍ من عامرِ الأوطـان

نرى الشاعر حزيناً لفقد الطائر وكيف لا يحزن عليه وهو يعدّه صديقه وصاحبه وخليله بل وخالص خلّانه، وقد عاشره أكثر من سبعة عشر عاماً؟ ثم أخذ الشاعر ينوح نواحاً باكياً ويوضح مشاعره الحزينة وعواطفه الصادقة تجاهه، حيث امسى تراباً يستوطن القبر الموحش بعد أن نزح إليه من العمران، فقلب الشاعر حزين لفقده ، وأحشاؤه تلتهت فيها النيران لموته ، وعيناه تسكب الدموع حزناً وحسره لبعده.

ثم يعود فيعدد صفات المرثي كعادته في قصائد الرثاء، فيصور كل جزء من أجزائه تصويراً دقيقاً معتمداً على التشبيه الحسي اعتماداً كبيراً في ابراز صوّره، فيقول(٣٩) :

كان المطوق أنســاً للأهل والجيـــــــران

وكان طلقاً ضحوكاً يجيب كـــــــل أوان

وكان أعجمٌ فـــــي نطقه فصيح اللســـان

وطالما غنانـــــي من مطرب الألحـــان

لمعبد والسريجـــ ـــي والغريض اليماني

كأنَّ عينيه ياقـــو تتان حمـــــــراوان

كأنَّ رجليه مـــيو غتان من أرجـــــوان

كأنَّ هامتـــــه ر كبّت على غصـن بان

وهكذا يرثي الشاعر الطائر ويبكي عليه ويعبّر عن مشاعرهُ وعواطفه نحوه في صورة لم يألفها الأدب العربي من قبل، وفي ضرب جديد من الرثاء استجد في العصر العباسي وبرز موضوعاً جديداً من موضوعات الرثاء في ذلك العصر بكل معنى الكلمة.

ومن رثاء الطير ايضاً في ذلك العصر قصيدة الشاعر " احمد بن يوسف" كاتب الخليفة المأمون وأخو الشاعر السابق "القاسم بن يوسف" ، يرثي "ببغاء" ماتت لصديق له وكان له أخ متخلف يُقال له عبد الحميد ، فيقول(٤٠) :

أنت تبقى ونحن طراً فداكـــا أحسن الله ذو الجلال عزاكا

فلقد جل خطب دهرٍ أتانـــــا بمقادير أتلفت بـــــــبغاكا

عجباً للمنون كيف أتتـــــــها وتخطت عبد الحميد أخـاكا

كان عبد الحميد أصلح للموت من الببغاء وأولى بذاكـــــا

شملتنا المصيبتان جميـــــعاً فقدنا هذه ورؤية ذاكـــــــا

فمن الواضح أن الأبيات قيلت على شبيل الدعابة والمزاح، وتخلو من صدق العاطفة ولا تدل على معانٍ انسانية نبيلة، إذ كيف يحزن الإنسان لفقد طائر ويتمنى الموت لإنسان مثله بديلاً عن هذا الطائر مهما كان هذا الإنسان ، ومهما بلغ من التخلف العقلي ما بلغ وهو الذي كرّمه ربّه على سائر المخلوقات؟ فالشاعر كاذب العاطفة ، ونظرته غير انسانية جملة وتفصيلاً.

الخاتمة:

لقد توصلنا من خلال دراستنا لـ **(رثاء الحيوان في العصر العباسي)** جملة من النتائج العلمية لعل ابرزها ما يلي:

١- استعمل الشعراء رثاء الحيوان كونه غرض قائم بذاته وموضوع شعري جديد كما في رثاء ابو نواس لكلبه، وكعادة الشعراء ينظمون الشعر في الألوان الشعرية المستحدثة لإثبات براعتهم وتمكنهم من ادواتهم.

٢- هناك عدد من الشعراء استعمل رثاء الحيوان رمزياً فظاهر القصيدة تستهدف البكاء على الحيوان المفقود، ولكن باطنها يستهدف البكاء على شخص آخر، وهذه التقيّة جاءت خوفاً من السلطة كما في قصيدة النهرواني، وايضاً أراد أن يرسم صورة للفقر الشديد الذي يعيشه.

٣- وكذا الحال مع القاسم بن يوسف في رثائه فجاءت قصائده تحاكي قصائد الرثاء في الانسان من ناحية النظم شأنه شأن باقي الشعراء، وتحمل رسالة مبطنه عن بطش السلطة الحاكمة آنذاك.

٤- وجزء آخر من الشعراء استعمل رثاء الحيوان تملقاً للخليفة أو تقرباً منه لغرض الكسب ، كما فعل الشعراء في رثاء برذون ابا عيسى.

٥- والقسم الأخير من الشعراء ينظم قصيدة في رثاء الحيوان في الظاهر، لكنه يستهزئ بصاحب المصيبة في الباطن عن طريق استعمال المزاح والتهكم في أبياته كما في رثاء احمد بن يوسف لببغاء.

الهوامش:

[١]) المصدر نفسه، ص ١٥٨٠

[٢]) احمد الهاشمي، جواهر الأدب، ط، ١٢ ، ١٣٣٨ هـ ، ج/٢، ص ٣٨١

[٣]) ينظر: قدامة بن جعفر، نقد الشعر، تحقيق: محمد عبد المنعم الخفاجي، ط١، دار الكتب العلمية ، بيروت، ص ١١١

[٤]) ابن رشيق الثيرواني، العمدة في محاسن الشعر وأدبه ونقده، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٨٢م، ص ١٤٧

[٥]) المصدر نفسه، ص ١٢١

[٦]) محمد مصطفى هداره، اتجاهات الشعر في القرن الثاني للهجرة، دار المعارف، مصر،ط٢ ، ١٩٧٠م، ص ٤٣٧

[٧]) ابن منظور، لسان العرب، مادة " ندب"

[٨]) المصدر نفسه ، مادة " أبن"

[٩]) المصدر نفسه، مادة " عزاء"

[١٠]) ينظر: احمد عمارة، رثاء الحيوان في الشعر العربي(حتى نهاية العصر العباسي)، ط١، ١٩٩٦م، مكتبة النهضة المصرية، ص ٢٩-٥٧ . ينظر: د. عبد الهادي عبد النبي علي، اتجاهات الرثاء وتطوره في العصر العباسي الأول، ط١، ١٩٩٠م، ص ٩-٥٥

[١١]) المبرد، الكامل في اللغة والأدب والنحو والتصريف، ج/٢ ، ت. ز. مبارك، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، ص ٧٩٠-٧٩١

[١٢]) ينظر: د. عز الدين اسماعيل، في الشعر العباسي الرؤية والفن، دار المعارف، مصر ،١٩٨٠م، ص ٣٧٨

[١٣]) ديوان ابو نواس، برواية الصولي، تحقيق: د. بهجت عبد الغفور الحديثي، دار الكتب الوطنية ، ابو ظبي،ط١ ، ٢٠١٠م، ص٧٠

[١٤]) الطباع، ديوان الخنساء ، دار الأرقم، بيروت ، ش.ع ،٢٠١٦م، ص ١٠٦

[١٥]) علي، ع،ا، الرثاء في الشعر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري، لبنان ، دار القارئ، ٢٠٠٨م،ص ١٤

[١٦]) ديوان ابن علاف النهرواني ، جمع وتحقيق: صبيح رديف، مطبعة الجامعة، بغداد، ١٩٧٤م ، ص٣٢-٣٨

[١٧]) المصدر نفسه

[١٨]) مروة م،ر ، عبد الله بن المعتز خليفة يوم وليلة ، دار الكتب العلمية، بيروت، د ط، ١٩٩٠م ، ص ٣٩ وما بعدها.

[١٩]) ابو بكر بن العلاف وقصيدته في الهر، علي حسين البواب، مجلة الفيصل الثقافية ، عدد ٢٤٦، ١٩٩٧م، ص ٣٨ وما بعدها.

[٢٠]) أخبار الشعراء المحدثين من كتاب الأوراق، ابا بكر الصولي، عنى بنشره ج. هيورث. د ن، دار المسرة، بيروت ، ج/١ ، ص١٦٤

[٢١]) شعر القاسم بن يوسف بن القاسم العجلي (ت٢٢٠هـ) مضامينه وأبيته التشكيلية ، عبد المجيد الأسداوي، ط٢، دار التيسير للطباعة والنشر بالمنيا، مصر، ٢٠٠٣م، ص١٩٤-١٩٥

[٢٢]) المصدر نفسه

[٢٣]) المصدر نفسه

[٢٤]) المصدر نفسه

[٢٥]) المصدر نفسه

[٢٦]) المصدر نفسه

[٢٧]) المصدر نفسه

[٢٨]) الحصري، زهر الآداب وثمر الألباب، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي ، ط٢ ، ج/١، ص٤٧٥

[٢٩]) المصدر نفسه

[٣٠]) المصدر نفسه

[٣١]) الجاحظ ، القول في البغال، حققه وعلق عليه: شارل بلا، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط١، ١٩٥٥م، ص ١٣٥

[٣٢]) عبد اللطيف عاشور، موسوعة الطير والحيوان في الحديث النبوي، مكتبة القرآن، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص ٧٧

[٣٣]) الصفدي، الوافي بالوفيات، تحقيق: مصطفى، دار احياء التراث، بيروت، ٢٠٠٠م، ج/ ٧، ص ١٤٩

[٣٤]) الثعالبي، يتيمة الدهر، دار الكتب العلمية، بيروت، د ط، ج/٣، ص ٤٠٢

[٣٥]) القاضي الجرجاني، ديوانه، تحقيق: سمير ابراهيم صالح، دار البشائر، دمشق، ٢٠٠٣م، ص ٩٠

[٣٦])منير سلطان، بلاغة الكلمة والجملة والجمل، منشأة المعارف، الاسكندرية، ط٢، ١٩٩٣م، ص٨٨

[٣٧]) الصولي، الأوراق، ص١٩٣-١٩٥

[٣٨]) المصدر نفسه

[٣٩]) المصدر نفسه

[٤٠]) المصدر نفسه، ص٢٢٢

المصادر والمراجع:

١- ابن منظور، لسان العرب، ط١ ، دار المعارف، ج/٣، مادة (رثى)

٢- احمد الهاشمي، جواهر الأدب، ط، ١٢ ، ١٣٣٨ هـ ، ج/٢

٣- قدامة بن جعفر، نقد الشعر، تحقيق: محمد عبد المنعم الخفاجي، ط١، دار الكتب العلمية ، بيروت

٤- ابن رشيق الثيرواني، العمدة في محاسن الشعر وأدبه ونقده، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٨٢م

٥- محمد مصطفى هداره، اتجاهات الشعر في القرن الثاني للهجرة، دار المعارف، مصر،ط٢ ، ١٩٧٠م

٦- احمد عمارة، رثاء الحيوان في الشعر العربي(حتى نهاية العصر العباسي)، ط١، ١٩٩٦م، مكتبة النهضة المصرية

٧- د. عبد الهادي عبد النبي علي، اتجاهات الرثاء وتطوره في العصر العباسي الأول، ط١، ١٩٩٠م

٨- المبرد، الكامل في اللغة والأدب والنحو والتصريف، ج/٢ ، ت. ز. مبارك، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده.

٩- د. عز الدين اسماعيل، في الشعر العباسي الرؤية والفن، دار المعارف، مصر ،١٩٨٠م

١٠- ديوان ابو نواس، برواية الصولي، تحقيق: د. بهجت عبد الغفور الحديثي، دار الكتب الوطنية ، ابو ظبي،ط١ ، ٢٠١٠م.

١١- ديوان الخنساء، الطباع، دار الأرقم، بيروت ، ش.ع ،٢٠١٦م

١٢- الرثاء في الشعر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري، علي، ع،ا، لبنان ، دار القارئ، ٢٠٠٨م

١٣- ديوان ابن علاف النهرواني ، جمع وتحقيق: صبيح رديف، مطبعة الجامعة، بغداد، ١٩٧٤م

١٤- مروة م،ر ، عبد الله بن المعتز خليفة يوم وليلة ، دار الكتب العلمية، بيروت، د ط، ١٩٩٠م

١٥- ابو بكر بن العلاف وقصيدته في الهر، علي حسين البواب، مجلة الفيصل الثقافية ، عدد ٢٤٦، ١٩٩٧م

١٦- أخبار الشعراء المحدثين من كتاب الأوراق، ابا بكر الصولي، عنى بنشره ج. هيورث. د ن، دار المسرة، بيروت ، ج/١

١٧- شعر القاسم بن يوسف بن القاسم العجلي (ت٢٢٠هـ) مضامينه وأبيته التشكيلية ، عبد المجيد الأسداوي، ط٢، دار التيسير للطباعة والنشر بالمنيا، مصر، ٢٠٠٣م

١٨- الحصري، زهر الآداب وثمر الألباب، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي ، ط٢ ، ج/١

١٩- الجاحظ ، القول في البغال، حققه وعلق عليه: شارل بلا، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط١، ١٩٥٥م

٢٠- عبد اللطيف عاشور، موسوعة الطير والحيوان في الحديث النبوي، مكتبة القرآن، القاهرة، ٢٠٠٠م

٢١- الصفدي، الوافي بالوفيات، تحقيق: مصطفى، دار احياء التراث، بيروت، ٢٠٠٠م، ج/ ٧،

٢٢- الثعالبي، يتيمة الدهر، دار الكتب العلمية، بيروت، د ط، ج/٣

٢٣- القاضي الجرجاني، ديوانه، تحقيق: سمير ابراهيم صالح، دار البشائر، دمشق، ٢٠٠٣م،

٢٤- منير سلطان، بلاغة الكلمة والجملة والجمل، منشأة المعارف، الاسكندرية، ط٢، ١٩٩٣م